

## الإمبراطورية الأمريكية والتحدى الروسي

2007/03/29

كانت مشاركة الرئيس بوتن في مؤتمر ميونخ الأمني في الأسبوع الثاني من الشهر الماضي فرصة لتأكيد مكانة روسيا الدولية والأوروبية، وتذكير الدول الغربية عامة، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، بأن روسيا دولة ذات تاريخ عريق، وأنها لعبت دورا هاما على الساحة الدولية، وأنها لن تقبل أن تعامل كدولة من الدرجة الثالثة. وفي هذا السياق جاء النقد اللاذع الذي وجهه الرئيس الروسي للإدارة الأمريكية متهما إياها بالنفاق فيما يتعلق بالعديد من القضايا الدولية. ولقد اشتمل النقد الروسي الذي ارتقى إلى مرتبة الهجوم الصريح على القول بأن أمريكا ألحقت أضرارا بالعراق تفوق ما ألحقه نظام الرئيس صدام حسين بها، وأن أمريكا أصبحت بسبب سياستها الحالية تشكل خطرا على الأمن العالمي. إلى جانب ذلك، تساءل الرئيس الروسي عن أهداف أمريكا التي تسعى لتوسعة حلف الناتو وضم أعضاء جدد من جيران روسيا كانوا حتى الأمس القريب أعضاء في الاتحاد السوفيتي الذي ورثت روسيا تركته وتحمل اليوم مسؤولياته.

ومن خلال تقييمه للمعطيات الدولية والتطورات العالمية في المجالات المختلفة، حاول الرئيس بوتن عرض وجهة نظر بلاده بشكل يوحى بأن روسيا استعادة ثقافتها بنفسها، وأنها تملك إمكانيات اقتصادية وتكنولوجية وعسكرية تخولها لمعاودة نشاطها واستعادة مكانتها التي فقدتها، ويبدو أنها افتقدتها أيضا، منذ تفكك الاتحاد السوفيتي وانتهاء الماركسية. وفي معرض تساؤله عن أسباب وأهداف قواعد الصواريخ التي تنوي الإدارة الأمريكية إقامتها في جمهورية التشيك وبولندا قائل الرئيس الروسي إن إقامة قواعد لصواريخ حلف الناتو على حدود روسيا لا يخدم أمن أوروبا ولا علاقة له بالإرهاب، وأنه ربما كان مدعاة لعودة الحرب الباردة وسباق التسلح.

وبدلا من اتخاذ موقف دفاعي فيما يتعلق بالديمقراطية واحترام القانون، قام بوتن بإلقاء محاضرة على خصومه في موضوع الديمقراطية من خلال تجاوز الحدود الإقليمية بالنسبة لمجال تطبيق الفكرة الديمقراطية وطرحها كمفهوم عام ونظام دولي يستوجب الاحترام على المستوى العالمي. وفي هذا المجال قال بوتن أننا في روسيا نتعرض دوما لدروس في الديمقراطية، ولكن لسبب ما، يبدو أن المعلمين غير معنيين بالتعلم من دروسهم، مضيفا أن الديمقراطية تركز على قوة الأغلبية في ضوء مراعاة مصالح وآراء الأقلية، وأن تصرف أمريكا المنفرد فيما يتعلق بالقضايا الدولية يخالف المبادئ الديمقراطية.

وانطلاقا من هذا الموقف، قام الرئيس الروسي بمهاجمة سياسة القطب الواحد، أي نظام ومفهوم الهيمنة الإمبراطورية، وهو النظام الذي روجت له مجموعات المحافظين الجدد وقام رجال بوش وتشيني بالعمل على تطبيقه على الغير من الدول. وبالتحديد، قال الرئيس بوتن: إن نظام القطب الواحد طرح بعد انتهاء الحرب الباردة، وأن التاريخ شهد محاولات سابقة وطموحات إمبراطورية ماضوية لم يكتب لها النجاح. ولكن مهما قيل عن نظام القطب الواحد، فإنه في نهاية المطاف يشكل مركزا واحدا للسلطة، ومركزا واحدا للقوة، ومركزا واحدا لصنع القرار... إنه عالم يحكمه سيد واحد يتمتع وحده بالاستقلال، وهو نظام فتاك ليس بالنسبة لمن يخضع له فقط، بل وأيضا بالنسبة للدولة صاحبة السلطة نفسها، لأنه يؤدي إلى تدميرها من الداخل.

كانت روسيا التي خرجت من محنة تفكك الاتحاد السوفيتي وانتهاء الماركسية في أوائل التسعينات من القرن الماضي دولة ضعيفة، تمتلك إمكانيات تكنولوجية وبشرية كبيرة، لكنها تفتقد الثقة بالنفس وتعاني من مشاكل اجتماعية واقتصادية صعبة للغاية. ولهذا تمكنت الحكومة الأمريكية من إقناعها، مستخدمة سياسة الجزرة للترغيب العصا للترهيب، بالقبول بدور ثانوي على الساحة الدولية، وبالسماح لغالبية الدول التي خضعت لسلطة الاتحاد السوفيتي بالاستقلال والانفصال عن روسيا. وبسبب ما كانت تعانيه روسيا من مشاكل عويصة في حينه ظنت أغلبية المحللين السياسيين والقادة الأمريكيين أن روسيا ستحتاج لعقود قبل أن تصحو من كبوتها وتستعيد قوتها، وتكون في وضع يسمح لها بالمطالبة بدور دولي هام. وهذا دفع أمريكا للتصرف كإمبراطورية مهيمنة، وتتخذ ما تراه مناسبا من قرارات فيما يتعلق بأوروبا وغيرها من المناطق دون الرجوع لروسيا ودون أخذ مصالحها أو وجهة نظرها في الحسبان. ومن أجل الحيلولة دون عودة روسيا إلى سابق عهدها بسرعة تم إقناع قيادتها السياسية بخصخصة صناعة النفط وغيرها من صناعات وشركات رئيسية، والقبول بانضمام دول أوروبا

الوسطى ودول البلطيق لحلف الناتو الذي تزعمه أمريكا.

إلا أن أمريكا لم تكن تتوقع أن يتولى رجلا قويا مثل بوتن زمام القيادة، وأن تقوم الدولة الروسية باستعادة سيطرتها على صناعة النفط والغاز في البلاد، وأن يحالفها الحظ بارتفاع أسعار النفط حوالي 300% خلال سنتين، وأن تصبح المنتج الأكبر للنفط في العالم، وأن يعاود الاقتصاد مسيرته التنموية بسرعة، وأن تحدث تلك التطورات الايجابية على الساحتين السياسية والاقتصادية دون اضطرابات داخلية. ومع حلول عام 2006 كانت روسيا قد استعادت ثقتها بنفسها، وأعدت بناء اقتصادها، وواجهت مشاكل المديونية الخارجية دون صعوبات تذكر، وأصبحت قوة أوروبية وعالمية ذات شأن. وهذا شجع الرئيس بوتن على ضخ قدر كبير من الحيوية في الدبلوماسية الروسية، والتوجه نحو تحديد سياسة واضحة لبلادها تقوم على تعريف وحماية مصالحها الوطنية دون خوف أو تردد. وفي مجال إيضاح أبعاد السياسة الروسية الجديدة، قام بوتن بتوجيه النقد للسياسة الأمريكية، وتحذير أمريكا من مغبة إهمال روسيا والمشاكل الدولية الهامة ومن بينها القضية الفلسطينية، وزيارة ثلاثة دول عربية حليفة لأمريكا، والمناداة بالعمل على تشكيل منظمة دولية لمنتجي الغاز الطبيعي في العالم.

يتضح مما تقدم أن روسيا عادت إلى الساحة الدولية كدولة تملك من الإمكانيات الاقتصادية والتكنولوجية والبشرية والعسكرية والموارد الطبيعية ومصادر الطاقة ما يكفي لجعلها قوة عظمى، ويمكنها من مد نفوذها إلى مناطق متعددة من العالم. وفي ضوء الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها إدارة الرئيس بوش في العراق، وعجزها عن التعامل بإيجابية مع قضية الصراع العربي - الإسرائيلي، وفشلها في الوفاء بالتزاماتها تجاه فقراء العالم، فإن صعود نجم روسيا سيؤدي إلى تقلص دور الولايات المتحدة الأمريكية، مما سيسلبها القدرة على التفرد في اتخاذ القرارات الدولية ذات التأثير على مصائر الغير من الدول والشعوب والفقيرة والصغيرة والضعيفة.

[professorrabie@yahoo.com](mailto:professorrabie@yahoo.com)

د. محمد عبد العزيز ربيع

لنشر يوم الثلاثاء 27-3-2007